منزلة الفضائل

على الرغم من تحول الكثيرين إلى الإسلام، والسير على نهجه، والظهور بمظهره من ناحية اللبس والسمت، وحرصهم على الدعوة إليه إن بالقول أو بالفعل أو بالمظهر، إلاّ أن البعض منهم لم يتغلغل الإسلام إلى جوانب عميقة في نفسه بحيث يغيرها أيضاً، ويجعلها منسجمة مع الإسلام ولا تتعارض معه، فما إن يحتك الواحد منا بأحدهم، حتى يكتشف التناقض العجيب بين مظهر الإسلام الذي حمله، وبين لب الإسلام الذي يتغافل عنه أو يتجاهله لدرجة التعارض الواضح، الذي ينقض القضية من أساسها.

فالإسلام ليس لبساً فقط، ولا مظهراً «ديكوراً» يضفيه الواحد على نفسه حتى يصبح مسلماً، إن الإسلام مجموعة من القيم الأخلاقية التي تترجم إلى واقع حيّ متحرك،

obeikandi.com

يعيش في المجتمع فيأخذ بأيدي الناس إلى الرقي الخلقي، والرفعة الاجتماعية، والسمو الإنساني. وما لم يكن المسلم متحلياً بهذه الأخلاق فإنه يطعن الإسلام من الخلف، ويصمه بالضعف حيث لا قدرة له على انتشال اتباعه من هوة التخلف إلى سدة الرقي والتقدم الإنساني بين شعوب الأرض، في حين أن السبب الحقيقي يكمن في تخاذل المسلمين وعدم التزامهم بقيم دينهم.

ولذا أحببت أن اتحدث معك عن بعض الفضائل التي يجب أن تتحلى بها المسلمة الملتزمة، واختياري لهذه الفضائل دون غيرها يرجع إلى عدة أسباب منها:

أ ـ اهميتها في حياة المسلم بشكل عام، والمسلمة المتلزمة بشكل خاص.

ب ـ غفلة الكثيرين عنها، حتى أنهم لا يتصورون أنها فيهم.

جـ ـ علاقتها المباشرة بالمهمة الأساسية للمسلم، وهي الدعوة إلى الله عز وجل.

١ ـ الصدق

كثير ممن يَدَّعُون الالتزام بالإسلام بالقول والشكل،

obeikandl.com

نجدهم ضعافاً أمام كلمة الصدق، حتى أنهم يكذبون بغير انتباه، وكأن الكذب أصبح لديهم عادة لا تثير انتباههم، ولا تؤرق عيونهم لخطورتها. رغم أن الكذب والإيمان لا يلتقيان في قلب المؤمن أبداً، ومعنى ذلك أن من يكذب ينسف الإيمان من قلبه تماماً. فعن صفوان بن سليم أنه قيل لرسول الله (ﷺ): أيكون المؤمن جباناً؟ قال: «نعم» فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: «نعم» فقيل: أيكون المؤمن كذاباً؟ قال: «لا». [رواه مالك مرسلاً] فالمؤمن بشر، وفيه ضعف البشر من جبن وبخل... إلا أن الكذب قبيحة لا تجتمع في قلب المؤمن مع الإيمان في آن واحد ولهذا حذر النبي (ﷺ) من الكذب وحضَّ على التزام الصدق ففي حديث ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البِرِّ، والبرُّ يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» [رواه البخاري ومسلم].

وفي تصوري أن وقوع هؤلاء في الكذب يأتي من عدة عوامل أبرزها ما يلي: المبالغة، المباهاة، الرغبة في التميز.

أما **المبالغة**: فلا بأس فيها إن كانت في حدود المعقول، الذي لا ينفك عنه الإنسان كبشر، وتدخل في باب اللغو من الكلام، كأن تقولي: اتصلت بكِ هاتفياً عشرين مرة فلم أجدك، والحقيقة أنك اتصلت خمس مرات مثلاً، أو تقولي: نهيت ولدي عن اللعب بالنار ستين مرة فلم ينتهِ، والحقيقة أنها ثلاث مرات.. فهذه مبالغات يُتجاوز عنها في الحديث غالباً، وهي مألوفة للناس، ولا يأخذونها مأخذ الجد، أو الحصر العددي المذكور، وإن كان التحرز منها أفضل. وكلما كان المسلم صالحاً مرهف الحس، كلما ابتعد عن ذلك حتى ولو كان فيه مسامحة من الناس. مرض أحد الصالحين الزهّاد، فجاءت عمته لتعوده، فقالت له: كيف أنت يا بُني؟! فقال: ولدتني؟ قالت: لا. قال: أرضعتني؟! قالت: لا. قال: فما عليك لو قلتِ: يا ابن أخي ولا تكذبين.

انظري هذه الحساسية ضد الكذب، أو حتى المبالغة التي يتسامح الناس فيها عادة، كيف رفضها حسه المرهف. فانتبهي لا تجرك المبالغة إلى الكذب حتى يصبح عادة لك، تقعين فيه دون وعي ولا قصد منك.

والمباهاة: مرض آخر يسيطر على كثير من النساء، ولا تخلو منه بعض المسلمات الملتزمات، حتى يدفعهن إلى

الكذب المقصود المفضوح. ويكثر هذا عند هؤلاء إذا كانت لها بنت في سن الزواج فإن الثناء عليها ووصفها بالفضائل كلها أمر عادي مألوف، ولعلك رأيت بعض هذه المواقف في الأفلام أو المسلسلات، ولكن هناك مباهاة مفضوحة، لأنها لا يقبلها عقل ولا منطق. زعمت إحداهن أن بنتها تحفظ جزء القرآن في ساعة واحدة عن ظهر قلب. وأخذت تكرر هذا الزعم في كل مجلس تحضره. فهل هذا يتفق مع المنطق والواقع؟! فالإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ وغيره الكثيرون حفظوا القرآن في سن التاسعة، وضُرب به المثل في سرعة الحفظ وقوة الحافظة، ومعنى أن تحفظ كل ساعة جزءاً أنها تستطيع حفظ القرآن كله في يوم ونصف، ولو أخذنا في الاعتبار أوقات النوم والطعام لحفظته في ثلاثة أيام فهل هذا الرقم صحيح؟ ومما لا شك فيه أن هذا الحد فوق طاقة البشر، ويستحيل وجوده. ولو حدث لذاع صيتها حتى بلغ الآفاق وهذا لم يكن ولم يحدث.

والسؤال هنا: ما الذي يدفع مثل هذه المسلمة الملتزمة شكلاً إلى الكذب المفضوح؟ ليس هناك من سبب إلا الرغبة في المباهاة، وضعف الإيمان الذي يحول بينها وبين ذلك، والاستخفاف بعقول الناس الذين قد تنطلي عليهم هذه المقولة.

والرغبة في التميز: دافع آخر قوي عند البعض، حتى يجعلهم يكذبون ويتكرر الكذب ما دام هناك إحساس بالنقص يسيطر عليهم، فيدفعهم إلى الكذب لستر هذا الضعف.

والعجيب في الأمر أن هؤلاء تغافلوا عن حقيقة واضحة، وهي أن الله قَسَّمَ الأرزاق والقُدُرات والحظوظ بين عباده كما قَسَّمَ الهموم أيضاً، ولم يجعل لواحد منهم كل الفضائل، وللآخرين كل الرذائل، أو يجعل الكمال المطلق لفرد، والنقص المطلق للآخرين، فكما وهب إنساناً بعض الفضائل، وهب الآخرين كذلك، وكما سلبه بعض الفضائل، سلب الآخرين كذلك. ومعنى هذا أنه لا بد أن يحدث تمايز وتفاضل وتفوق. إلا أن بعض الناس عموا وصموا عن ذلك، واعتقدوا أن الكمال والتفوق والذكاء والعبقرية والمهارة (والشطارة) وكل فضائل الدنيا والآخرة من نصيبهم هم وذويهم، بينما غيرهم دون ذلك. وهؤلاء يضايقهم أن يسمعوا أو يشعروا بتميز أحد آخر غيرهم، بأي شيء، وإن شعروا أو سمعوا بهذا التميز اندفعوا للكذب، ولكي تعرفي هؤلاء من أول مقابلة أصف لك مسلكهم:

إذا حدث وأن تحدثتي مع أحدهم في أمر حقيقي من

باب الخبر لا من باب التميز بأن أحد أقاربك ـ أخاك أو ابنك ـ نال المرتبة الأولى في مدرسته، وهي حقيقة حدثت. تضايق وانبرى يذكر لك الأوائل في أسرته مثلاً، فإن لم يكن في أسرته ذكر جيرانه، وإن لم يكن أحد في جيرانه، ذكر معارفه. . . وهكذا، المهم عنده أن يرد لك هـذا الشعور حتى لا يظهر ضعفه هو، أو نقصه هو. هـذا الإحساس يدفعهم إلى الكذب والاختلاق المفضوح.

ويكثر هذا عند النساء بوجه خاص، في مجال المهارات النسائية من طبخ وتطريز وتنسيق وإعداد البيت. . . إلخ.

ما الذي يدفع هؤلاء إلى سلوك هذا المسلك؟ ليس هناك من دافع إلا الإحساس بالنقص، وخوف التميـز عليهم، فيندفعون إلى الكذب.

فاحذري يا مسلمة هذه الغوائل، لا تجرك إلى الكذب من حيث لا تشعرين، حتى يصبح عادة عندك تقعين فيه بلا وعي منك. وهذا من أقبح الأمور بالمسلمة الملتزمة.

٢ ـ الوعد:

وهـذا أمر آخـر خطير، يقـع فيـه كثـير من المسلمـين الملتزمين، وهو عدم الالتزام بالوعد، ومنه الدقة في المواعيد.

وفي تصوري ينشأ هذا التفلت لأسباب ثلاثة:

أ ـ ضعف الإيمان.
ب ـ الأنانية.
جـ ـ الاستهتار.

أما ضعف الإيمان: فلأن خلف الوعد من النفاق، والنفاق قرين الكفر والعياذ بالله. ففي حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان» [متفق عليه] وزاد في رواية لمسلم: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم» وهذا سلوك يمقته الله تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون**﴾ [الصف/٢ ـ ٣].

وأما الأنانية: فإنهم عندما أخلفوا وعدهم أو موعدهم وجدوا أن هذا الوعد أو الموعد يتعارض مع مصلحة لهم، فقدموا مصلحتهم على مصالح العباد، حتى ولو كانت مصلحتهم أمراً تافهاً. أذكر مرة أننا كنا على موعد مهم، وأخذنا ننتظر أحد المعنيين بالأمر الذي نريد بحثه، فتأخر عن موعد الحضور ما يقارب ساعة ونصف، فلما جاء وإذا به يقول: كنت أشاهد برنامجاً تلفزيونياً خفت فوته!!

obeikandi.com

والموعد المضروب؟ والرجال الذين ينتظرونك؟ والأمر المهم الذي ينتظر البَتَّ فيه؟ كل هذه الأمور وضعها دبر أذنه عندما تعارضت مع شهوته!!

وأما كونه استهتاراً بالناس: فلأنه لا يقيم وزناً لغضبهم أو تعبهم أو ضياع أوقاتهم أو حرق أعصابهم. وهذا أمر محرم. نعم محرم، فيحرم على المسلم أذية المسلم واحتقاره، فهو آذاه بما سبب له من ضيق وتضييع الوقت والمصالح، وآذاه باحتقاره وعدم احترام موعده معه. ففي حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) قال رسول الله (ﷺ): «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً: المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله. التقوى هٰهنا ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه» [رواه مسلم].

ولهذا كان عدم الالتزام بالوعد، أو خلف الموعد نقيصة في المسلم، تخرم المروءة، فاحذري أن تكون فيك هذه الخصلة الذميمة، واحرصي على التحلي بصدق الموعد، وإنجاز العهد مهما كلفك ذلك من تضحيات أو تعب،

فسيصبح ذلك خلقاً تعرفين به، وكما قيل: من لزم شيئاً عُرف به.

٣ ـ البشاشة:

والبشاشة سمة يجب أن يتحلى بها المسلم والمسلمة، فالوجه البشوش سريع الدخول إلى القلب، وهي أمر دعا إليه رسول الله (ﷺ) ففي حديث أبي ذر (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق» [رواه مسلم] وفي حديث أبي ذر أيضاً قال رسول الله (ﷺ): «تبسُّمك في وجه أخيك صدقة...» [رواه الترمذي وحسنه].

والبشاشة والتبسم أمران يكتسبان بالمران، أرأيت المذيعات في التلفزيون والمضيفات في الطائرة ـ مع اعتراضنا على العملين ـ كيف ترسم الواحدة منهن الابتسامة على وجهها، لقد دُربت على ذلك فترة حتى أتقنته.

ورسم الابتسامة على الوجه، أو التحلي بالبشاشة عند مقابلة الناس ليس نوعاً من النفاق، بل هي ضرورة اجتماعية لتأليف القلوب وإشاعة المحبة، وزرع المودة. ولعلك تذكرين حديث عائشة (رضي الله عنها) «استأذن

رجل على رسول الله (ﷺ) فقال: ائذنوا له بئس أخو العشيرة أو ابن العشيرة، فلما دخل ألاَنَ له الكلامَ، قلتُ: يا رسول الله، قلتَ الذي قلتَ، ثم أَلَنْتَ له الكلامَ. قال: أي عائشة، إن شر الناس من تركه الناس أو وَدَعَهُ الناس اتقاء فُحشه» [رواه البخاري] فعائشة (رضي الله عنها) داخلها شيء من تصرف النبي (ﷺ) لأنه أظهر خلاف ما يبطن، حيث قال ما قال، فوضح لها النبي (ﷺ) أنه ليس فاحشاً، ولا يقابل الناس بأعمالهم، ولكنه يلقاهم بوجه طليق وكلام لين راجياً أن ينصلح حالهم وتتحسن أخلاقهم.

ولكن تنبهي لأمر خطير، وهو أن تبسمك هذا، أو بشاشتك تكون مع النساء فقط، واحذري أن تكون مع الرجال حتى لا يُساء بك الظن، ويتجرأ عليك مرضى القلوب. ولقد حذر الله من ذلك فقال: ﴿... **فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفا**﴾ **[الأحزاب/٣٢]**.

واعلمي أن العبوس والغلظة منفران للقلوب، وليست من سمات المسلمين الصالحين، فالمسلم هين لين بشوش يألف ويؤلف، لأنه داعية إلى الله. وما عليك إلا تدريب نفسك على الابتسامة الودودة في وجوه النساء حتى تصبح

أمراً ملازماً لك، تأتين به طبيعة وجِبِلَّة دون تكلف. والله يوفقك.

٤ ـ الكرم:

ولا أقصد بالكرم كثرة الإنفاق، فقد يكون المسلم أو المسلمة فقيرين لا يستطيعان ذلك، ولكني أقصد سخاء النفس وبذل الشيء، وإن كان يسيراً سواء أكان هذا الشيء مادياً أو معنوياً أو جهداً جسدياً. ويوضح هذا حديثُ النبي (ﷺ): «يا نساء المسلمات، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرْسَنَ شاة» [متفق عليه].

والفرسن من البعير كالحافر من الشاة، وهو كناية عن الشيء اليسير الذي لا يُهدى مثله. وأعرف رجلاً كان صياداً للقلوب، وأبرز ما أعرف من طباعه أنه ما وجد شيئاً في يده ـ مهما كان هذا الشيء ـ إلا قدمه هدية لجليسه أو جاره أو رفيقه، حتى تلك الأشياء التي قد نضحك من تفاهاتها كالعلب الفارغة أو أقلام الرصاص أو.. أو.. يقدمها.. وكان لا يبخل بجهده على أصدقائه ومعارفه، فما إن ينتدبه أحد لمسألة أو مهمة إلا قال: لبيك. فكان مالكاً لقلوب معارفه وأصدقائه.

obeikandi.com

هذا هو الكرم الذي أقصده، ولا أقصد الموائد الممدودة، ولا الهدايا الثمينة، ولا الأموال الطائلة، ولا العطايا العظيمة.

والمسلم حريص على كسب المحامد، ونبذ ذميم الخصال، وما وجدنا شيئاً أعظم قدراً في ستر العيوب كالسخاء، فصاحبي السخاء جهدك يستر عيبك، ويقربك إلى قلوب الخلق، وانوي بعملك وجه الله عز وجل، حتى لا يضيع عملك سُدى، والله يوفقك.

٥ ـ التواضع:

والتواضع خلق الأنبياء، ونهج الصالحين، ولأن التكبر يغضب الله تبارك وتعالى، ولا أعني بالتكبر المشي منتفخاً كالبالون، أو عدم زيارة الناس لأنهم دون المستوى، اجتماعياً أو مالياً أو علمياً. أو التعالي على الناس بمخاطبتهم من طاقتي الأنف، أو تصعير الخد فهذه كلها مظاهر التكبر المذموم الذي لا تخطئه العين، والذي يشعل النار في القلوب، ويملؤها سواداً وسناجاً.

ولكني أقصد التكبر الخفي، الذي يزاوله المتكبر تحت أسماء مزيفة أخرى، كسوء معاملة الرئيس لمرؤوسيه والتعالي

obeikandi.com

عليهم تحت اسم المصلحة العامة، وسير العمل وضرورة أن يكون للرئيس هيبة حتى لا يتجرأوا عليه، أو عدم الاهتمام بالآخرين، وترك مجاملتهم في الأفراح والأحزان تحت اسم عدم التدخل في خصوصيات الناس، فقد يصاب عزيز على أحد الأصدقاء، فيلتف المعارف والأصدقاء حوله للاطمئنان على حال المصاب، وقد يتكرر السؤال يومياً عن آخر تطورات المرض أو الإصابة، ويظل هذا مجانباً صامتاً تحت اسم عدم التدخل في شؤون الآخرين. وكعدم مدح الناس بما فيهم أو الثناء عليهم بما يستحقون تحت اسم عدم النفاق أو الرياء...

والحقيقة أن هذه كلها تعلات فارغة يتعللون بها لإخفاء ما انطوت عليه نفوسهم من كراهية الناس وحب التعالي على الخلق، ولكنهم يستترون وراء هذه المظاهر حتى لا تنفضح حقيقتهم.

واعلمي أن أكثر ما يقربك إلى قلوب الناس التواضع معهم وعدم إشعارهم بالتعالي، ولا يكون ذلك إلا بإنكار ذاتك وعدم الإكثار من الحديث عن نفسك وأهلك وذويك، أو مهارتك وإنجازاتك، لأن النفوس جبلت على كراهية هذا النوع من البشر.

obeikandl.com

وعليك الاهتمام بالآخرين دون إسراف، فالمجاملة مطلوبة شرعاً وعرفاً، وقدمي لهم المساعدة إن احتاجوا لها، ولا تتواني عن الثناء عليهم بما فيهم من خصال حقيقية، ولا بد أن تجدي فيهم جانباً يستحق المدح والثناء، ولو كان مدحك هذا في غير وجوههم لكان أفضل وأبعد عن مظنة التزلف، وكم يكون الإنسان سعيداً عندما تبلغه كلمات المديح والثناء من إنسان آخر في غيبته، هذه الكلمات كفيلة بإزالة الكراهية إن وجدت، وكفيلة بزراعة المحبة في القلوب. فاحرصي على الثناء عليهم بما فيهم من جميل الصفات وحميد الخصال، وإياك أن تمدحيهم بما ليس فيهم. فهذا كذب من جانب، ومن جانب آخر يصمك بالاختلاق والنفاق.

٦ ـ الإقبال بالوجه:

وهذا طبع يغفل عنه كثير من الناس، ومنهم الإسلاميون بالطبع، ولو تنبهوا لهذا الطبع لأدركوا كيف تكتسب القلوب، فما وجدت مصلحاً اجتماعياً أحبه الناس وتحلقوا حوله، وأعطوه قلوبهم، إلا كان لهذا الجانب دور في سلوكه.

فالناس بطبعهم يحبون من يهتم بهم ويقدرهم ويقبل

عليهم، أما الذي لا يعيرهم اهتماماً فإنه يجرح نفوسهم ويطعن كبرياءهم ولذا ينفرون منه، وينفضون عنه.

ولذلك يا حبذا لو تعلم الناس حسن الاستماع كما يتعلمون حسن الكلام، لملكوا بذلك قلوب الخلق. قال الشعبي فيما يصف به عبد الملك بن مروان: «والله ما علمته إلا آخذاً بثلاث، تاركاً لثلاث: آخذاً بحسن الحديث إذا حدث، وبحسن الاستماع إذا حُدِّث، وبأيسر المؤنة إذا خولف، تاركاً لمجاوبة اللئيم، ومماراة السفيه، ومنازعة اللجوج». وقال عطاء بن رباح: «إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت له كأني لم أسمعه قط، وقد سمعت به من قبل أن يولد».

وكان لي صديق لا تعوزه الحنكة والنظرة الصائبة للأمور، إلا أنه إذا ألمت به مصيبة، أو بدا له أمل أو طموح، من تلك الآمال الكبار، والطموحات العظام، جاءني ليحدثني ويخصني بسره ومكنون صدره، فاستمع إليه وأعطيه رأيي، وأنا أعلم يقيناً أنه ليس في حاجة لهذه المشورة، إنما كانت حاجته لصديق يعطيه أذنيه، ليستمع إليه جيداً، فيرى انعكاسات هذه الآمال والطموحات في نفوس الآخرين، فكنت أمنحه ذلك وأنا مدرك لحاجته

تلك، فيعود وقد هدأت نفسه واستراح باله.

والناس في حاجة لمن يقدرهم وينظر لهم نظرة احترام، فإن وجدوا هذا الذي يمنحهم هذا الإحساس تعلقوا به ومنحوه قلوبهم. ولا يجرح الإنسان مثل نظرة التغافل وعدم الاهتمام، مهما كان هذا الإنسان صغيراً في السن، أو صغيراً في القدر، أو ضعيفاً في الجسم، أو ضعيفاً في المال. فهذه كلها عوارض دنيوية لا تلبث أن تزول ـ بحول الله وقدرته ـ ويتغير حال الإنسان، ويبقى الجرح الذي أصابه ينكأ كلما مر ذكر من جَرَحَهُ وأساء إليه، ويظل دم هذا الجرح وصديده يرويان شجرة الحقد في قلبه، حتى وإن تسامى على الحقد، إلا أنه بالتأكيد لم يعد في قلبه متسع لمحبته.

فلو استطعتِ أن تتحلي بهذين الطبعين: حسن الاستماع، والاهتمام بالآخرين وتقديرهم، ملكتِ قلوب معارفك وأقرانك وصديقاتك.

هذه بعض الأخلاق والصفات التي رأيت أن كثيراً من الإسلاميين يتغافلون عنها، أو أنهم قَصَّرُوا في التعود عليها، والتخلق بها، أو لنقل: قَصَّرَ المربون في تنشِئتهم عليها وأخذهم بالحزم المدروس حتى تصبح الخلق الذي لا يفارقهم، فإن كانت هذه نقائص في الآخرين، فهي في

شأن الإسلاميين أشد نقصاً وعواراً، وهي من مسببات الفشل في الوصول إلى قلوب الآخرين. فانتبهي لذلك وفقك الله.

obeikandl.com